رؤيا مـــــرزا

للكاتب الانجليزي يوسف أديسون

بقلم الآنسة ماهرة النقشبندي

رأى النصف الأول من القرن الثامن عشر كاتباً بارعاً وفناناً أصيلا سال وجال في جريدتي السبكتاتور Spactator وتتلر Totler وصور حياة الانجليز الاجتماعية تصويراً دقيقاً في تلك المقالات المنثرية التي كان ينشرها في الجريدتين المذكورتين ، والتي تعتبر من فنون الأدب الرفيعة ، يدرسها طلاب الأدب في اللسان الانجليزي فترهف احساسهم وتشيع في أذواقهم روعة فن التهكم في ابلغ معانيه . تخرج من جامعة اكسفورد وكان شاعراً يجيد القريض في اللسان اللاتيني . طاف أوروبا دارساً متنقلا ؛ وعاد منها وانخرط في السياسة فوصل إلى كرسي الوزارة وجلس في البرلمان الانجليزي والارلندي مدة طويلة . تزوج سنة ١٧١٠ من الأرملة الفاتنة المثرية الكونتس واروك ومات في هولندا في ١٧ — ٦ — ١٧١٩ ودفن في مقابر عظماء الانجليز في كنيسة وستمنستر

(المترجمة)

حينما كنت في مدينة القاهرة العظيمة وقع في يدي عدد من المخطوطات الشرقية التي لايزال بعضها معي ، ووجدت من بينها واحدة عنوانها رؤيا ميرزا ، بعثت قراءتها في نفسي سروراً لا حد له . وقد عزمت على نشرها للقراء عندما لا أجد ما أسليهم به وسأبدأ بالحلم الأول الذي ترجمته بالحرف الواحد كما يلي :

عندما حل اليوم الخامس من الشهر القمري الذي لا أزال أقدسه كعادة اجدادي ، اغتسلت وصليت الصبح ثم تسلقت تلال بغداد لاقضي سحابة اليوم في التأمل والتعبد . وبينما كنت اتنزه على قمم الجبال ، رحت في شرود ، أفكر في تفاهة الحياة البشرية ، وتنازعتني الفكر ، وقلبت الأمور على وجوهها فلم اجد الإنسان إلا ظلا ولا الحياة إلا حلماً طويلا . وبينما أنا في تأملي وقد سرحت النظر إلى قمة صخرة لاتبعد عني كثيراً ، رأيت رجلاً في ثياب راع يحمل في يده آله موسيقية وضعها إلى شفتيه وبدأ يعزف عليها حينما نظرت إليه . كانت الانغام رائعة شجية مختلفة الايقاع تنساب في رفق ولين وعذوبة لا توصف وكانت تختلف عن كل ما سمعته أذناي من موسيقى ، وذكرتني بالأنغام السماوية التي لا تعزف إلا للارواح الصالحة عند رحلتها الأولى إلى الفردوس لتنسيها آلام النزع الأخير وتمدها للسعادة التي تنتظرها في ذلك المكان البهيج . فأحسست كأن قلبي يذوب وكأنني افنى في ذهول خفي .

لقد كنت أعلم ان هذه الصخرة يسكنها جني ، وان بعضهم قد اطربه موسيقاه الساحرة ، غير انني لم أسمع ان العازف قد ظهر للعيان . وفيما أنا ذاهل عن نفسي بما اثارت هذه الأنغام الشجية في رأسي من افكار ، ولكي يتيح لي لذة محادثته اشار إلي بيده حينما نظرت إليه مشدوها لأقترب من مجلسه ، فدنوت منه باحترام يليق بمكانة كأن غير بشر . ولما كانت أنغامه الشجيه قد اخضعت قلبي بكليته فقد ركعت على قدميه انتحب . فابتسم لي بسمة يشع منها اللطف والحنان جعلته قريباً إلى نفسي ، غير مخيف لناظري ، وطردت ما اعتراني من خوف وفزع عند قدومي إليه . وأخذ بيدي ورفعني عن الأرض قائلا : ميرزا ! لقد سمعتك وأنت تناجي نفسك فاتبعني . وقادني بعدئذ إلى أعلى نقطة في الصخرة واوقفني فيها وقال : ألق بنظرك إلى الشرق وأخبرني ماذا ترى ؟ قلت : أرى وادياً عظيما يمر فيه تيار هائل من الماء . قال ، ان هذا الوادي الذي تراه هو وادي الشقاء ، وهذا التيار الذي يقع عليه ناظراك هو جزء من تيار الأبدية العظيم . فسألته ما السبب في ان التيار الذي اراه ينبع من ضباب كثيف من طرف ، ثم يتلاشى في ضباب كثيف في الطرف الآخر ؟ قال : ان ما تشاهده هو ذلك القسم من الأبدية الذي ندعوه بالزمن ونقيسه بواسطة الشمس ، ويمتد من بداية الدنيا إلى نهايتها . حدق الآن في هذا البحر الذي تكتنفه الظلمات من جميع جهاته وأخبرني عما تجد فيه . . قلت . . اني أرى جسراً في منتصف التيار . قال : ان هذا الجسر الذي تراه هو حياة البشر ، فانظر إليه جيداً . وبعد إعادة النظر الدقيق وجدته مؤلفاً من ستين دعامة وعشر اخرى منفردة وبعض الدعامات المخربة التي إذا اضفناها إلى تلك تجعل المجموع يربي على المائة . وفيما كنت احصي الدعامات اخبرني الجني ان الجسر كان مؤلفاً في البداية من ألف دعامة ، ولكن فيضاناً مدمراً جرفها وترك الجسر في حالة الخراب التي تراها . فسألني عما أجد

فوقه فقلت : ارى جمهوراً من الناس يمرون عليه وارى سحابتين سوداوين معلقتين فوق نهايتيه . وبعد أن أعدت النظر ثانية رأيت بعض السائرين يسقطون من الجسر إلى التيار الهائل الذى يتدفق فى أسفله . وبعد كثير من الفحص والتدقيق لاحظت مزالق لانعد وضعت فى الجسر بصورة خفية ، وحينما يطأها المارون يسقطون منها إلى التيار فيبتلعهم حالاً ويختفون . وكانت عند هذه الفتحات الخفية واسعة عند مدخل الجسر بحيث ان كثيراً من الناس كانوا يسقطون فيها حال خروجهم من الغيوم . وتأخذ فى الضيق عند منتصفه ولكنها تتضاعف وتقترب من بعضها عند اقترابها من نهاية الدعامات المنفردة .

لقد وجدت ان عدداً قليلاً جداً من الناس هم الذين استطاعوا الإستمرار فى سيرهم نحو الأعمدة المخربة ثم سقطوا تباعاً منهوكى القوى متعبين من ذلك السير الطويل .

وقضيت بعض الوقت فى تأمل ذلك البناء العجيب وما بان فيه من مواضع مختلفة غريبة . وقد ملأ قلبى الأسى لرؤية بعضهم يسقطون على حين غرة وهم فى اوج السعادة والمرح فيتشبثون بكل ما تقع عليه ايديهم لإنقاذ انفسهم .

وكان بعضهم ينظر إلى السموات غارقاً فى تفكير عميق ، وفى خلال تلك التأملات والذهول يتعثر ويسقط ثم يتوارى عن النظر .

وكانت الجماهير منهمكة فى اللحاق بالدمى التى كانت تشع بالنور فى عيونهم وترقص أمامهم ، وعند ما يحسبون انهم بالغوها تزل اقدامهم فيقعون فى الأعماق غارقين . وبين هذه الأشياء المحيرة لاحظت ان بعضهم يحملون سيوفاً وآخرين يحملون مباول وهم يروحون ويجيئون فوق الجسر يدفعون بعض الناس خلال المزالق التى لا تبدو واضحة فى طريقهم والتى قد ينجون منها لو لم يدفعوا إليها قسراً .

ولما رأى الجنى أننى منهمك فى تتبع هذا المنظر المحزن أخبرنى أننى قد تأملت طويلا وقال : حول عينيك عن الجسر واسألنى عن الشىء الذى لم تدركه . فسألته وأنا مصوب نظرى إلى الملاء عما تعنى تلك المجموعة الهائلة من الطيور التى تحوم بصورة مستمرة فوق الجسر وتقف عليه من حين إلى آخر فإننى أرى نسوراً وعقباناً وغرباناً ، وكثيراً من المخلوقات المجنحة ، أرى بينها صبياناً مجنحين يحتشدون مزدحمين فى وسط الأعمدة . قال الجنى : هؤلاء هم الحسد والطمع والخرافات واليأس والحرب وما شابهها من المطامع والآلام التى تفيض بها حياة البشر .

وند عن صدرى تنهد عميق وقلت : يا للأسف ! لقد خلق الإنسان سدى . يدفع للشقاء ثم للفناء . يعانى فى حياته الضنية الآلام الجسام ثم ينقض عليه الموت ويزدرده ، لقد تحركت الرأفة فى قلب الجنى فأمرنى أن أترك هذا المنظر المؤلم قائلاً كف عن النظر إلى الإنسان فى أول مرحلة وجوده ومسيره إلى الأبدية ، وسرح طرفك فى ذلك الضباب الكثيف الذى يحمل التيار إليه الأجيال الفانية ، فتنقلت ببصرى إلى حيث أمرنى « ولا أدرى هل كان الجنى الطيب قد بث فيه قوة فوق العادة أو أزاح قسما من الضباب الذى كان يبدو أولا شديد الكثافة حتى لا تستطيع العين اختراقه »

رأيت الوادى ينفتح من نهايته القصية ويمتد إلى محيط عظيم فى وسط صخرة من الماس تقسمه قسمين متساويين ، ولا تزال السحب تغطى نصفاً منه بصورة لم تدعنى أكتشف شيئاً منه . أما النصف الثانى فكان يبدو جلياً كمحيط فسيح تناثرت فيه جزائر لا يبلغها المد مزروعة بالفواكه والرياحين يفصلها عن بعضها آلاف من البحار الصغيرة المتلألئة . وكان فى استطاعتى أن أرى أناساً عليهم ثياب من سندس وإستبرق تزين رؤوسهم الأكاليل يتريضون خلال الأشجار ويتمددون عند الينابيع الصافية أو يستريحون على فراش من الأزاهير . وسمعت أنغاماً ساحرة مشوشة من تغريد الطيور وخرير المياه وأصوات بشرية وآلات موسيقية . فملأ هذا المنظر البهيج روحى بالسعادة ونفسى بالأمل وتمنيت لو كان لى جناحا نسر لأطير إلى هذا الوادى السعيد ؛ ولكن الجنى أنبأنى أن الطريق الوحيد إليه طريق الموت الذى كنت أراه يفتح فى كل لحظة فوق الجسر . واستطرد قائلاً إن خلف هذه الجزر التى تبدو لعينك نقية خضراء تملأ وجه المحيط بعددها الذى يفوق ذرات الرمل على ساحل البحر ، تمتد عشرات الآلاف من الجزائر حيث لا يدركه نظرك أو تتصوره مخيلتك تلك هى مساكن الصالحين بعد الموت يحلون بها قسر بلهم السعادة السرمدية ويحف بهم السرور الدائم كل حسب ما قدم وأخر وما امتاز به من فضيلة ومنزلة وهم